



النبوة عند الفارابي

الأستاذ عبد الوهاب فرحات
جامعة الأمير عبد القادر

تمهيد:

هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ من مدينة فاراب، وهي مدينة في إقليم خراسان التركي. قال عنه ابن سبعين المتصوف النقادة أنه: "أفهم فلاسفة الإسلام وأدراهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير ومات وهو مدرك ومحقق... وظهر عليه الحق بالقول والعمل"¹

ويعد الفارابي الممثل البارز والفيلسوف الأول في الحضارة الإسلامية حتى اعتبره ماسينيون أنه: "أول مفكر مسلم كان فيلسوفا بكل ما للكلمة من معنى"². وهكذا فإن الفارابي شخصية فريدة، وعقل نادر قل أن تجود بمثله الأيام لا في بيئات المسلمين فحسب، ولكن بين بيئات العالم - وهو في إخلاصه للحقيقة ليس له مثيل، وهو بذلك أنصع نموذج للباحث المتأله، الزاهد العابد الذي كرس حياته للبحث والتأمل والعبادة، إذ لم يعرف عن الرجل - كما أمدتنا كتب التراجم - أي انحراف سلوكي أو فكري بل قد أشارت إلى أنه صاحب نفس مؤمنة عميقة التدين شديدة الانجذاب لقضايا الألوهية ومسائل

1- عبد الحق بن سبعين، بد العارف، تح جورج كتورة، ط1-بيروت: دار الأندلس، ص143.
2- نقلا عن: أحمد خواجة، الله والإنسان في الفكر العربي الإسمي، ط1، بيروت، منشورات عويدات 1983م، ص28

النوبة عند الفارابي ————— أ. الوهاب فرحات

الصفات والأسماء الحسنى وما كتابه الرد على "ابن الراوندي"¹ إلا برهان على غيرته الدينية وإخلاصه لها .

وما تلك المنازع الروحية، واللمحات الصوفية التي حفلت بها آثاره تلميحا وتصريحا إلا شهادة صدق على ما نقول، ولا شك أننا في أمس الحاجة للمزيد من الدراسات الناضجة التي تتعرض لهذا المنحى الصوفي عند فيلسوفنا وغيره من فلاسفة الإسلام.

نشأته وسيرته: لا تشير المراجع التي تؤرخ حياة الفارابي إلى تفصيلات وافية عن نشأته الأولى، ولا تلقي ضوءا ساطعا على نسبه وأسرته التي تربي في كنفها حتى أن معظم المراجع عرضت حياته الشخصية والفكرية ابتداء من قدومه بغداد وهذه مرحلة متأخرة في حياة الفارابي إذ يقدر مصطفى عبد الرازق دخوله إلى بغداد في حدود (٨١٠هـ) وهو على عمر يناهز الخمسين عاما تقريبا²، إذن فحياة الرجل الأولى لا تكاد تقدمنا عنها الأخبار بشيء اللهم إلا ما ذكر أن أباه قائد جيش، وكذلك ما ذكر من اشتغاله بالقضاء في بلده فنستنتج أن فيلسوفنا كان ملما بالثقافة الإسلامية من تفسير وفقه وأصول وغيرها من العلوم الآلية، ونحسب أن هذا التكوين بقي ملازما لشخصه وقد تجلّى هذا في آثاره التي خلفها.

مترلته وفضله: اتفق المؤرخون الذين ترجموا للفارابي أن هذا الشيخ كان ذكيا بارعا في الحكمة القديمة والرياضيات والموسيقى واللغات والعلوم واكتسب الفارابي هذه الثقافة الموسوعية الشاملة تدريجيا حتى دعي بسببها "بالمعلم الثاني" على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول .

ولا يخفى على أحد الدور الكبير الذي قام به الفارابي في نهضة الفلسفة وإثراء الدراسات الفلسفية بالشرح والتفسير والتحليل والإضافة فقد كانت مساهماته بحق رائعة، ومؤلفاته

1- هو أحمد بن إسحاق الرواندي، يهودي الأصل مات في أخريات القرن الثالث، له آراء في النوبة لها خطرها من أهم تأليفه "الزمردة" في إنكار الرسل وإبطال رسالتهم .

2- مصطفى عبد الرازق، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، ط1، القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي 1945م، ص59.

النوبة عند الفارابي _____ أ. الوهاب فرحات

متنوعة، واهتماماته متعددة ولا غرو أن يصفه ابن خلكان بأنه "أكبر فلاسفة المسلمين، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه. والرئيس أبو علي بن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه"¹.

والواقع أن "أوليري" أصاب كبد الحقيقة حينما قال إنه: "ليس من الصعب المبالغة في تقدير أهمية الفارابي، فالواقع أن كل ما نلقاه فيما بعد عند ابن سينا وابن رشد موجود في صلب تعاليم الفارابي"².

وإذا كان ابن سينا قد اعترف صراحة بتأثير الفارابي على أفكاره وإقراره له بالسبق والأولوية ودينه له بالخضوع والأستاذية³ فإن الأثر الذي خلفه الفارابي على ابن رشد وبخاصة في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" يحتاج إلى وقفة بل وقفات، وسوف تتضح أهمية الفارابي أكثر إذا استطعنا إبراز أثره على تصوف "محي الدين بن عربي"، وعند شيخ الإسلام "ابن تيمية" عندما تحدث عن أدلة وجود الله. وهذا رأي لا نحسب أن أحدا قد تطفن إليه.

والفارابي أول من أُلِفَ في تصنيف العلوم وتقسيمها في الحضارة الإسلامية وذلك في كتابه "إحصاء العلوم"⁴. ولئن كانت الألسن تلهج باسم الفارابي منذ أُلِفَ عام فإن قـمـين بذلك بما وهب حياته لخدمة العلم والحكمة، وبما ترك من جلائل الأعمال ذودا عن العقيدة من جهة، وتمكيننا للفكر الفلسفي في البيئة الإسلامية من جهة أخرى.

ظروف ومبررات النظرية: تعد نظرية الفارابي في النبوة من أهم الأفكار التي تركها الرجل بما أثارت من جدل ونقاش في البيئة الإسلامية فقد قبلها البعض ورفضها البعض الآخر .

1- ابن خلكان، وفیات الأعيان، تج: إحسان عباس، بيروت: دار صادر 1977م، ج5، ص153.
2- أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، تر: اسماعيل البيطار، ط، بيروت: دار الفكر اللبناني 1982م ص135.

3- د. ابراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ط2، القاهرة، سمر كو للطباعة والنشر [د.ت] ج1، ص45.

4- طبع هذا الكتاب وحقق من طرف الفيلسوف المصري الدكتور عثمان أمين.

والواقع أننا لا يمكن أن نفهم هذه النظرية حق الفهم، دون أن نضعها في الإطار التلويحي الذي ولدت فيه، والملابسات التي أحاطت بها. فلقد جاءت محاولة الفارابي في وقت تعرض فيه العالم الإسلامي إلى موجة من الشك والإنكار لبعض أسس الإسلام ومبادئه، ولقد تولى كبر هذه الهجمة بعض الزنادقة من أمثال "ابن الرواندي" و"ابن زكريا الرازي" الطبيب والفيلسوف المعروف.

فكان أن استنفر هذا الهجوم نفرا من علماء الكلام — وكان هذا هو الدور الطبيعي الناجح لعلم الكلام — ولقد أبلى المعتزلة بلاء حسنا في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ودحض شبه الخصوم والملاحدة والزنادقة فخص منهم صاحب كتاب "الانتصار للرد على ابن الرواندي الملحد" ألا وهو "أبو الحسن علي الخياط".

ويهمنا في هذا الصدد أن نبين أن الفترة التي عاشها الفارابي وقبله بقليل كانت ميدانا فسيحا للمجادلات حول مصدري الإسلام ذاته وهما الوحي والنبوة، فكان لا بد للفارابي أن يتناول القضية من منظور عقلي صرف، يفضي إلى التسليم بها وتصديقها والأخذ عنها. هذا هو الإطار التاريخي للنظرية، وهو في رأينا المفتاح الذي يحل لنا كثيرا من الإشكالات التي أثرت حولها، والتفسيرات التي فسرت بها والنتائج التي بنيت عليها، والتي لم يدر بخلد الفارابي منها شيء أبدا.

وتستند آراء المنكرين للنبوة في عمومها إلى ترديد آراء البراهمة والسمنية وخلاصة آرائهم اعتقاد بطلان الوحي والنبوة وعدم الحاجة إليهما، إذ أن الأنبياء إما أن يخاطبونا بما نعقل فما وجه الحاجة إليهم وفي العقل كفاء وغناء، وإما أن يخاطبونا بما لا نعقل، وبالتالي فهم مجانين وما داموا كذلك فيجب علينا عدم اتباعهم والإنصات إليهم.

تفسير الفارابي لظاهرة النبوة: وملخص هذه النظرية كما يصورها لنا الدكتور إبراهيم مذكور في كتابه القيم "في الفلسفة الإسلامية — منهج وتطبيقه" أن النوم هو ركود الإحساس

النبوة عند الفارابي ————— أ. الوهاب فرحات

وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم اثر تخلصها من اشتغالها بالمحسّات حتى تصعد إلى سماء النور والمعرفة.

ومتى توفرت لشخص مخيلة ممتازة تمت له نبؤات في النهار مثل نبؤات الليل، وأمكّنه في حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل¹.

وهذا يؤدي إلى اعتبار الأحلام نموذجاً مصغراً وإلى حد ما لحالة النبوة وهذا ما يرشد إليه الدين نفسه - سواء الإسلام أو الأديان السابقة - بل قد شاعت ظاهرة تعبّر الرؤى وتفسير الأحلام بين شعوب العالم قاطبة ولم تختص بأمة من الأمم أو بجنس من الأجناس، ولقد حدثنا القرآن الكريم عن مواقف إنسانية فرضتها أحلام، وتولى تأويلها خبراء بهذا الفن، وأشهر الأحلام المروية حلم العزيز الذي فسر له سيدنا يوسف ولم يعد أضغاث أحلام، وكذلك رؤيا سيدنا إبراهيم بذبح ابنه وأخذ إبراهيم - عليه السلام - بهذه الرؤيا واعتبرها أمراً إلهياً.

ونجد في كتب الصحاح أمثلة لهذه الأحلام بل قد بدأ الإمام البخاري كتابه العظيم "الجامع الصحيح" بكتاب "بدء الوحي" حيث اعتبر هذا الإمام أن الرؤى التي رآها رسول الله ﷺ ما هي إلا إرهابات ممهدة لظهور نبوة محمد ﷺ.

ولذا يعترف الشرع بأبسط صور الوحي التي يعتمد فيها على المنامات الصادقة والرؤى الصالحة ولقد جاء في الحديث الشريف: "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"².

وبذا تبين لنا الصلة بين الأحلام والرؤى والنبوة والوحي مع مراعاة الطبائع والأمزجة والظروف التي تحيط بالرائي طبعاً.

1- إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه، (مرجع سابق) ج 1، ص 95.

2- البخاري، الجامع الصحيح، باب التعبير.

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الفارابي يرى أن الرؤى والأحلام وهي من آثار المخيلة يمكن أن تفسر لنا ظاهرة النبوة إلى أبعد حد.

والنبي عند الفارابي بشر منح مخيلة نفاذة تمكنه من الحصول على الإلهامات السماوية في مختلف الظروف والأوقات دون أن تستغرق مخيلته الخواص أو أعمال العقل، والأنبياء ليسوا وحدهم في هذا الميدان بل قد يشاركونهم غيرهم من أرباب التأمل والنظر الفكري والتصفية، ولكن مع مراعاة الفروق الفردية بين مخيلات الأنبياء وبين غيرهم من البشر وهذا ما صرح به الفارابي نفسه يقول -رحمه الله - : "ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة في يقظته وبعضها في نومه، ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره ودون هذا من يرى جميع هذا في نومه فقط وهؤلاء تكون أقاويلهم التي يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزا وألغازا وابدالات وتشبيهات، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كبيراً"¹.

ويبدو أن الفارابي يقصر هنا طائفة الصوفية وكبار الأولياء الذين كثيراً ما يلجأون إلى لغة التلميح بدلا عن لغة التصريح.

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الفارابي يرى أن الاتصال بالعقل الفعال (مصدر الصور والمعارف والإلهامات) يتم بطريقتين: طريق الأنبياء وطريق الفلاسفة وإن شئنا الدقة أكثر طريق الأولياء والمتألهين .

وللحقيقة فإن الفارابي كان يرى أن للنبي طاقة أخرى أو قوة إلهية تمكنه من التقاط الوحي واستيعابه ولنتأمل ما يقوله في كتابه فصوص الحكم "النبوة هي الاتصال بقوة قدسية يذعن لها بالغريزة عالم الخلق الأكبر كما يذعن لروحك عالم الخلق الأصغر فيأتي النبي بمعجزات خارجة عن العادات ولا تأتي مرآته من الانتقاش بما في اللوح المحفوظ والكتاب الذي لا يبطل وذوات الملائكة التي هي الرسل"².

1- الفارابي، المدينة الفاضلة، تح: السيد نصري نادر، بيروت: المطبعة الكاثوليكية 1959م. ص 94.
2- الفارابي، عجائب الفصوص في تهذيب الفصوص، ط1، القاهرة: مطبعة السعادة 1935م، ص 81-82.

النبوة عند الفارابي _____ أ. الوهاب فرحات

هذه هي نظرية الفارابي في النبوة، أقام دعائمها على أسس عقلية صرفة هدف من خلالها إثبات ظاهرة الوحي بعد أن ثبت الإيمان بها شرعا وبذا استطاع الفارابي أن يفلح جموع المنكرين للنبوة وأن يزيغ آرائهم ويقضي بذلك على فتنة أو شكك أن يعلو أوارها في البيئة الإسلامية .

نقد نظرية النبوة: الآن وقد لخصنا باختصار نظرية النبوة عند الفارابي يجدر بنا أن نيمم وجهنا شطر الانتقادات الكثيرة التي وجهت لهذه النظرية لعل أهمها:

١- إذا كان في مقدور بعض أصحاب الفطر الفائقة الاتصال بالعقل الفعال، فإن النبوة تغدو أمرا كسبيا وهذا يتناقض أساسا مع المبدأ الإسلامي القائل بأن النبوة محض اجتناء وبأنها "خصوصية من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة ولكن يشترط أن يؤمر بالتبليغ"¹.

الواقع أننا قد أشرنا قبل إلى أن الفارابي كان يعالج موضوع النبوة من موقف عقلي معتمدا على المبادئ النفسية البحتة، وكان غاية اهتمامه الانتصار لمبدأ النبوة من حيث هو، في وجه المعارضين عليها لا بالنسبة للمؤمنين الواثقين بكل ما ورد في القرآن وفي السنة الصحيحة بشأن الوحي.

وفي هذا الإطار وحده يمكن أن نفهم لماذا غرض الفارابي عن النصوص الشرعية المتعلقة بتزول جبريل عليه السلام وغير ذلك من الآثار المتصلة بالوحي وكيفيةاته. أضف إلى ذلك أن الفارابي لم ينكر شيئا مما ورد في الشرع من هذه النصوص والأخبار التي تتعلق بطرائق الوحي لا تلميحا ولا تصريحاً.

1- البيهقوري، شرح جوهرة التوحيد، ط الأزهر: الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية 1974م، ص 157.

النبوة عند الفارابي ————— أ. الوهاب فرحات

٢- تسوي هذه النظرية بين النبي والفيلسوف وربما فهم البعض تفضيل الثاني على الأول ذلك لأن الحقائق الدينية تأتي مصحوبة بضرب الأمثال والمخيلة أيضا تكون مشوبة بالحس على حين أن الحقائق الفلسفية تأتي مجردة خالصة، وبما أن العقلي مقدم على الحسي فهم يرون أن هذا هو لازم نظرية الفارابي .

والحقيقة أن هذا الاعتراض ليس وجيها إذ أنه من المقرر عند العلماء "أن لازم المذهب ليس مذهبا لصاحبه" وبخاصة أن لدينا نصوص كثيرة يحتفظ فيها الفارابي للنبوة بأشرف المقامات وأعظمها. يقول الفارابي في كتابه فصوص الحكم: "النبوة هي الاتصال بقوة قدسية فيأتي النبي بمعجزات خارجة عن العادات ولا تأتي مرآته عن الانتقاش بما في اللوح المحفوظ والكتاب الذي لا ييطل وذوات الملائكة التي هي الرسل"¹.

زد إلى ذلك إن الفيلسوف كما أشار الفارابي لا يستطيع أن يدرك حقائق الأشياء بل لا يعرف من الأشياء إلا ظواهرها وصفاتها يقول أبو نصر: "الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر ونحن لا نعرف من الأشياء إلا الخواص واللوازم والأعراض، ولا نعرف الفصول المقومة لكل منها الدالة على حقيقته، بل إنها أشياء لها خواص وأعراض، فإننا لا نعرف حقيقة الأول ولا العقل ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء والماء والأرض ولا نعرف حقائق الأعراض"².

ويعلل الفارابي سبب موقفه هذا، ويرجعه إلى أن أصل معرفتنا بالأشياء يعود إلى الحس والحس متغير فلذلك من المستحيل أن يزودنا بمعرفة يقينية وهو رأي يكاد يقترب من رأي الفيلسوف الألماني كانط (ت ١٨٠٤م) الذي رأى أن العلم محدود بالظواهر ولا يستطيع العقل إدراك حقيقة الشيء في ذاته³.

1- الفارابي عجائب النصوص في تهذيب الفصوص (مرجع سابق)، ص 81-82.

2- الفارابي، التعليقات، ط1، صدر آباء الركن 1926م، ص4.

3- نقلا عن جعفر آل ياسين فيلسوفان رائدان، ط1، بيروت، دار الأندلس 1980م، ص83.

وإذا كان هذا رأي الفارابي في علوم ومعارف الفلاسفة فكيف يسوغ لنا أن نتهمه بأنه يفضلهم على الأنبياء أو حتى يسوي بينهم.

هذه هي نظرية النبوة عند الفارابي وهي فيما قال الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور أهم محاولة قام بها فلاسفة الإسلام للتوفيق بين الفلسفة والدين، والفارابي هو أول من ذهب إليها وفصل القول فيها، بحيث لم يدع فيها زيادة لخلقائه فلاسفة الإسلام الآخرين. وهذه النظرية هي أسمى جزء في مذهبه الفلسفي تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة وتتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة والأخلاق¹.

ومع تقديرنا للجهد الذي بذله فيلسوف الإسلام في تأسيس هذه النظرية وإنشائها والدفاع عنها، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أننا نوافق الفارابي في كل ما ذهب إليه وإنما غرضنا تبيان الباعث والدافع الذي حفز الفارابي على معالجة هذه القضية على هذا النحو والحقيقة أن النبوة تجربة شخصية شأنها شأن تجارب عديدة كتجربة الرياضة الصوفية والحب الإنساني وبالتالي لا يمكن التعبير عنها أو نقلها للغير وهذا محيي الدين ابن العربي الصوفي الشهير يتوقف عن الحديث عن مقام النبوة لأنه لا قدم للأولياء فيه حيث يقول: "وما توقفنا عن الكلام في مقام الرسول والني صاحب الشرع إلا لأن شرط أصل الطريق فيما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا، ولا لمن ليس صاحب شريعة في نبوة التشريع ولا في الرسالة فكيف نتكلم في المقام لم نصل إليه وعلى حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممن ليس ذي شريعة من الله ولا رسول، حرام علينا الكلام فيه فما نتكلم إلا فيما لنا فيه ذوق فما عدا هذين المقامين فلنا كلام فيه عن ذوق لأن الله ما حجره"².

1- إبراهيم مذكور في الفلسفة الإسلامية (مرجع سابق) ص 70.
2- ابن عربي، الفتوحات المكية، بيروت، دار صادر، [د.ت] ج 2، ص 24 ويمكن أن ينظر أيضاً ف. ج 2، ص 25 وف ج 3، ص 14.

النبوة عند الفارابي _____ أ. الوهاب فرحات

وهذا أبو يزيد البسطامي سئل عن هذه المسألة فقال: "مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثّل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما في الظرف مثل ما لنبيينا محمد¹".

وأخيرا وليس آخرا فإننا نختم هذه المحاولة المتواضعة بقولنا "أن خوض البحر شيء والوقوف على شاطئه ووصفه شيء آخر".

1-القشيري، الرسالة البينانية، تح: معروف زريق، ط1، بيروت: المكتبة العصرية 2001م، ص356.